جورج حبش

د. عبدالإله بلقزيز

النظافة، النقاوة، الطهارة، المبدئية المثالية، الإيمان الأسطوري بقضية.. مفردات لا تنتمي إلى السياسة وقلما كانت في التاريخ من معدات من يحرثون في حقل السياسة ويزدرعون. الأنبياء والأبطال التاريخيون وحدهم من ارتفعوا بالسياسة إلى مستوى الرسالة فحرروا السياسة من المعنى الضعيف، وزودوها بالطاقة الأخلاقية التي صنعت بها المعجزات في الأرض وحررت بها البشرية من الخوف والعبودية والاعتساف والقهر. غير هؤلاء، لم يعرف للسياسة، ولم يعرف من السياسة، غير معناها المألوف والمبتذل كقرينة على المصلحة أو المنفعة وكوسيلة مجردة من أية أخلاقية عليا عدا تلك التي تؤسسها السياسة نفسها وتسوغها بحسبانها الأخلاقية الشرعية والإيجابية الوحيدة. ولم يكن رعاة الصلة الماهوية بين السياسة والأخلاق في تاريخ الإنسانية ممن حالفهم الحظ دائماً فأفلحوا في تحصيل ثمرات نظرتهم الإنسانوية الرفيعة إلى السياسة كرسالة عليا من أجل خير البشرية. فقد يحدثنا التاريخ عن مصائر ومآلات غير طيبة لهاتيك المساعي التي سعى فيها الأعاظم والكبار. إليكم ما تقوله صحائف السماء ومدونات التاريخ في الدنيا: كم من نبي جحده قومه فقتلوه أو حاصروا دعوته فقضى في صمت من غير أن تصل رسالته إلى شغاف النفوس، لتخرج تعاليمه من حيز السياسة والإمكان المستحيل إلى حيز الارشاد الروحي وطقوسه من صلوات وجولات في النفس عميقة. وكم من بطل تاريخي ألقى في نفس شعبه فكرة كبيرة فخذله الزمن وانكسرت بطولته مادياً ثم انبعثت أمثولة في النفوس تستلهمها الأجيال وتتجدد بها الآمال. في المقابل، ما أكثر من أخذ السياسة بغير مأخذها الأخلاقي فكسب معركة ثم لم يلبث أن خسر حرباً بعد حين. ما أكثر السياسيين الذين كسبوا رهانهم فأتى عليهم الدهر بالنسيان. وما أكثر الذين حفروا في ذاكراتهم أسماء الأنبياء والأولياء والأبطال التاريخيين الذين قضوا ولم يعاينوا ثمرات نبوءتهم أو نضالهم. لم يترك الأولون ما به يذكرون على فالح فعلهم لكن الأخيرين بذروا في النفس معنى لا يزول وارتفعت قاماتهمْ عن حدود البشري والواقعي. من لا يدرك حقيقة هذا الرأسمال الرمزي النادر في صناعة التاريخ لا يدرك التاريخ، نعني: لا يدرك الديناميات العميقة التي تصنع التاريخ. من لا يدرك ذلك، سيعجز دائماً عن فهم الأسباب التي تقود إلى عودة "الأموات" وأفكارهم ومثلهم إلى رحاب السياسة والحياة العامة، عما يسميه بعضهم اليوم بعودة الموروث ومعه عودة تلك الطاقة المعنوية المذهلة التي لا تقبل صرفاً أو قياساً بالقيم والمقاييس المادية. هذا ليس نصاً في هجاء السياسيين، ولا هو نص في مديح الأبطال والأنبياء والمرسلين. إنه أقرب ما يكون إلى البوح والاعتراف: البوح بشعور إنساني تجاه فقدان معنى رفيع من معاني السياسة في تاريخنا العربي المعاصر، والاعتراف لمن أخذ معه ذلك المعنى وهو يرحل عنا بالجميل التاريخي الذي يليق بأي شريف على هذه الأرض أن يعترف لصاحبه به. وصاحبه جورج حبش: الرجل الذي يكفيك اسمه كي تعرف من هو. إنه الفكرة والقضية والثورة في صورة رجل اختصر المعاني كلها وارتفع عن حدود المحسوس والمألوف. كان بسيطاً إلى أقصى حدود البساطة. لكنها البساطة التي لا تنقاد لأحد سواه، أو لأحد ممن هم في جملة أضرابه (وهم قليلون لا يكادون يحسبون). كأن البساطة ما كانت وضعت لغيره حين وضعت. كأنها على مقاسه كانت فأتت تعرض نفسها في كل شيء فيه: في صوت شديد الدفء والصدق، في ثغر لا يبخل يوماً بفيض ابتسامات يفتر عنها، في حركات اليد المسكونة بالحزم، في مفردات تهبط بالمصطلح السياسي إلى اللغة المحكية التي تخاطب أكثر الناس. معه أنت في حضرة رجل تاريخي بامتياز، رجل ندر أن وجدت له في التاريخ المعاصر مثالاً. لكنك تحار في فهم ذلك المنسوب الهائل من التواضع في شخصه والذي يتدفق بتلقائية من عينيه ومن لسانه من دون حدود. وفي بساطته كان ملتزماً ثوابته بحزم بحيث لا يحيد عنها حتى حين تدلهم الآفاق. تحاول عبثاً أن تستدرجه إلى حديث عن أفق قريب ممكن، فيأخذك إلى البعيد. تفهم أن السياسة عنده مسكونة بالتاريخ، بل هي التاريخ يمشي خارج قلعة الماضي فيردد دروسه. مؤمن هو لا مكان للشك عنده. الإيمان مذهبه ومشربه وطريقته المثلى في الحياة. رَ ما بدا لك، ع ما شئت، فلا هو يرى ما تراه إن ذهلت عن النظر إلى الأفق المفتوح، ولا هو يعي ما تَعي إن أخذتك مثبطات اليوم عن وعي محفزات الغد. شيئاً فشيئاً تدرك أنه لا دواء عن وعي محفزات الغد. شيئاً فشيئاً تدرك أنه لا دواء ليأسك أو حبوطك أو وهن عزمك سوى أن تصغي ل "الحكيم" جورج حبش فتتمتع بحمام روحي يطهر النفس من أدرانها. كثيرون اختلفوا مع جورج حبش في السياسة، وذهبوا عكس مذهبه فيها: حين كان قومياً عربياً (وكذلك ظل)، وحين أصبح ماركسياً (قومياً). لكن أحداً من الذين اختلفوا معه لم يجادل يوماً في أن الرجل ضمير شعب وأمة لا يضارعه في المكانة ضمير أو يضاهيه. انعقد اجماع الجميع على أنه الترمومتر الأدق قياساً في النضال لقياس درجة الصحة والسواء أو درجة الخطأ والاعتلال في الموقف السياسي والوطني والقومي من هذه أو تلك من أمهات المسائل في تاريخنا المعاصر من منتصف القرن العشرين الماضي. بدأ الحكيم حكيماً (طبيباً) في الأبدان، وانتهى حكيماً في النفوس والإرادات والعزائم: جراحاً ماهراً في استئصال اليأس.

سؤال جورج حبش

حسام عيتاني

تجذب الأحداث البشعة التي شهدتها الضاحية الجنوبية وعدد من شوارع العاصمة الانتباه بعيدا عن غياب جورج حبش. لكن الرجل يدفع في غيابه، كما دفع في حضوره، الى التامل في الحاضر اللبناني قبل الماضي أو المستقبل العربيين. تأمل على هدير حرب أهلية تقترب لكنه لا يفلح، ولا ينبغي له أن يفلح، في طمس ضرورة أخذ العبر من تجارب سبقت على غرار تجربة جورج حبش.

نظرة سريعة الى مسيرة الراحل تفيد بأنه انتقل من الايديولوجيا القومية العربية الى تلك الماركسية بحثا عن حل لإشكاليات عميقة أثارتها النكبة الفلسطينية. نقول إشكاليات لأن الأرضية التي تقف عليها القضية الفلسطينية لا تتلخص في مشكلة احتلال ولاجئين واستطيان. هذه هي العوارض الصارخة لمرض حاول جورج حبش بعيد استقالته من الامانة العامة للجبهة الشعبية البحث عن أسبابه العميقة عبر محاولة إنشاء «مركز دراسات الغد» الذي كان من المفترض أن يجيب عن سؤال مركزي: لماذا هُزمنا؟

دعونا نزعم أن الإجابة على سؤال جورج حبش الأخير لم توجد في القومية العربية ولا في الماركسية، ولا هي في أي نسق أحادي من التفكير ينتهي الى ادعاء الحقيقة والعصمة و«العلم». ودعونا نتفق أن طهرانية (بوريتانية) حبش ورهط من رفاقه، في سبيل القضية الفلسطينية والثورة، لم تكف للإحاطة بتعقيدات الواقع. فالطهرانية قد تكون ردا احتجاجيا على ما يبدو من أدران لوثت السياسة العربية ولازمتها، لكن الطهرانية ليست الطريق الى إيجاد الحل السياسي لقضية مثل قضية فلسطين.

والقومية العربية ومن ثم الماركسية وصلتا الى طريق مسدود من التعامل مع الواقع العربي بعدما أخفق أنصارهما في الاعتراف بدرجة الظلم الذي ينزلونه بهاتين الايديولوجيتين بفصلهما عن سياقهما التاريخي والحضاري. بل لعله من المنصف القول ان المباراة الايديولوجية بين العرب، من القوميين والماركسيين، والاسرائيليين الحاملين للفكرة الصهيونية، قد جاءت نتيجتها لمصلحة هؤلاء لأنهم، ببساطة، حملوا ايديولوجيا أنتجتها ضرورات حياتهم وظروفهم في أوروبا. بل إنهم وصلوا بها الى انتصارها الكبير بتأسيس دولتهم على أرض فلسطين، ما فتح الباب أمام تساؤلات عن معنى الصهونية بعد تحول اسرائيل دولة قوية يحضنها المجتمع الدولي على النحو الذي نرى. واسرائيل هي، بمعنى ما، النقيض التام للدولة العربية. فالاولى نجحت في تظهير فوائدها وأهميتها بالنسبة الى الغرب والعالم، استطرادا، في حين أن الثانية مثال لفقدان أي نوع من الجدوى بالنسبة الى العالم اللهم باستثناء جدوى استغلالها كمصدر للموارد الطبيعية...

لا مفر عند هذه النقطة من تكرار ملاحظة قديمة تقول ان هشاشة البنى الاجتماعية العربية خذلت القومية العربية والماركسية. فالايديولوجيا، في الحساب الاخير، ليست أكثر من فكر الحركات الاجتماعية. بالايدولوجيا تستتر مطالب الحركات وأحلامها وأساطيرها. ونسخ التجربة الاوروبية، القومية أو الماركسية أو غيرهما، ووضعها خارج السياقات التاريخية والاجتماعية التي أفرزتها، لن يؤدي في الختام إلا الى صدام بين الأحلام والمصالح. بين الايديولوجيا والواقع. هذا الصدام هو الذي تسير على إيقاعه القضية الفلسطينية اليوم. هل نلوم جورج حبش على أحلامه؟ لا، قطعا. فالتاريخ الفلسطيني لم يطو بعد صفحات كان الرجل من أبرز كتّابها، ولم يقل بعد كلمته الاخيرة فيها. غير ان هذا لا يجب أن يحول دون نظر في مسار القضية الفلسطينية منذ العام ١٩٤٨ وحتى اليوم. بل لا ينبغي أن يقام فصل تعسفي بين المناخات التي نشط وعمل فيها جورج حبش وبين الاجواء التي تسيطر عليها الحالة الفلسطينية. فالرائي الى الساحة الفلسطينية يكاد يخال أن ثمة قضيتين: واحدة كان من جورج حبش وياسر عرفات وخليل الوزير وصلاح خلف وغسان كنفاني وكمال ناصر من قادتها واخرى تتعاورها قيادات من طينة تلك التي نراها على الشاشات كل ساعة وكل يوم.

ندّعي أنها قضية واحدة. في ما نسب اليها من «بريق» ثوري ولى وانقضى وما يلصق بها تهافت وتداع مقيم لا يحول ولا يزول. وندعي ان الانحدار المريع في مكانة القضية الفلسطينية على الساحة العالمية وانقلاب أهلها قوى متناحرة يصعب تصور لقائهم في أمد منظور، هو نتاج ظروف عالمية هائلة الأبعاد لم تكن القيادة الفلسطينية مؤهلة للتعامل معها. ليس منذ الاجتياح الاسرائيلي للبنان ولا منذ اتفاق اوسلو بل منذ أن ظهرت التباينات العميقة بل الجذرية في داخل المجتمع الفلسطيني بشأن الكيفية التي يتعين التعامل فيها مع مسألة الهجرة اليهودية الجنينية في مطالع القرن العشرين. الانقسام بين ريف ومدينة، بين مؤيد للسلطنة العثمانية (ومن ثم للملك فيصل وللتحالف مع بلاد الشام) وبين مؤيد للعلاقة الوطيدة مع مصر، والخلافات بين أسر الوجهاء الفلسطينيين، كانت كلها إشارات الى العجز الفلسطيني، وبالتالي العربي، عن فهم روح العصر. عصر تدار فيه السياسة وفق المصالح وليس الحقوق، وهذا أقل ما يقال.

ترك جورج حبش، في ما ترك، سؤالا جسيم الأهمية والخطورة: لماذا أخفقنا؟ ولسنا نبالغ اذا قلنا انه من الاسئلة التي تطارد وعيا عربيا مأزوما، من غزة الى لبنان الى العراق. والباقون منا ليسوا في منأى.

— السفير